شعراء النصرانية بعد الاسلام

شعراء القرون المتأخرة مباشرة بالقرن الرابع عشر

للاب لويس شيخو اليسوعي (تابع)

١٧ مكرديج الكسيح

﴿ اخبارهُ ﴾ هذا ايضاً من جملة اهل الشهباء الذين نبغوا في القرن الثامن عشر ويُعَدّ من اركان النهضة الادبية التي انبعثت في ذلك العصر ومن الشهباء انتشرت في باقي انحاء سوريّة ولبنان ثم في القطر المصري

اخبار مكرديج الكسيح كأخبار رصفائهِ السابق ذكرهم لا تزال مطويّة في زوايا النسيان . فدونك كلّ ما امكننا ان نستخرجهُ من ضمن كتاباتهِ ومكاتبات اهل عصرهِ

هو مكرديج بن عبدالله المخلّع او الكسيح وُلد في كلس بلدة قريبة من حلب في اواخر القرن السابع عشر وانتقل في حداثتهِ الى الشهباء . وكان ارمنيّ الاصل كاثوليكيّ المذهب ومكرديج اسم ارمني معناهُ يوحنّا المعمدان . اما اسمهُ الكسيح او المخلّع فالظاهر انهُ لقبٌ يدلُّ على مرض مزمن اصابهُ في قسم من حياتهِ . اضطرّهُ الى السكون في بيتهِ دون ان يمنعهُ عن الدرس والتأليف . وقد عمّر المترجم طويلاً ولم نقف على سنة وفاتهِ والمرجّح انها وقعت في القسم الثاني من القرن الثامن عشر

﴿ آدابهُ وعلومهُ ﴾ كان مكرديج متضلّعاً من آداب عصرهِ بارعاً في العلوم . فوجد في سعيهِ باعثاً لخدمة معاصريهِ بالتأليف . وقد سردنا قائمة تآليفهِ في كتابنا المخطوطات العربيّة لكتبة النصرانيّة (ص١٩٥ــ١٩٦) . فمنها مصنّفات تدلُّ على عظم

تقواه وورعه مثل كتابهِ ظلّ الكمال في تثقيف الاعمال في فضائل السيّد المسيح وتعاليمهِ . وكتابهِ تردُّد النفس مع الله . وكتابهِ التبر المكنوز لمنفعة الكاروز وضعهُ لافادة الواعظين . وكتابهِ الطبّ الروحاني في الندامة والاعتراف . وخصوصاً كتابهِ مصابيح الاحكام الجليَّة في حلّ المشكلات الانجيليَّة حلّ فيهِ ١٥٠ مشكلاً كتابيًّا

ولهُ تآليف أُخرى ادبيَّة منها كتابهُ ريحانة الارواح وسُلَّم الآداب والصلاح ألّفهُ السنة ١٧١٨ في ١٢ فصلاً ضمّنها حكماً في الفضائل الادبيَّة والزهديَّات نقلها عن الاسفار المقدَّسة والآباء والفلاسفة والشعراء ما يشهد على سعة معارفهِ وكثرة مطالعاتهِ

وقد أحبَّ ايضاً ان يخدم اللغة العربيَّة بتأليف كتاب جليل واسع المواد دعاهُ كتاب الاهرامات يبلغ في نسخة مكتبتنا الشرقيَّة نيّفاً وسبعمائة صفحة قسمهُ الى ثلثة اهرام تشبيهاً باهرام الجيزة في مصر . افرد الهرم الاوَّل للمفردات العربيَّة عن السماء والموجودات العلويَّة والافلاك والمظاهر الجوّيَّة والمواليد الطبيعيَّة والعالم المدني في ٩٣ باباً . وخصّ الهرم الثاني باسماء آلات الصنائع والمهن وادوات الحروب في ٤٧ باباً . وروى في الهرم الثالث المفردات المختصَّة بالعلوم اللغويَّة والادبيَّة والفلسفيَّة والرياضيَّة والطبيعيَّة والفرق الدينيَّة ومساجدها وفي عواقب الانسان والعالم الآخر كجهنَّم والشياطين الخ . فهذا التأليف جدير بأن يُنشر بالطبع لكثرة فوائدهِ

﴿ رسائلهُ النثريَّة وشعرهُ ﴾ شُغف مكرديج الكسيح بالكتابة وقد تُرى لهُ رسائل مسجَّعة منمَّقة كرسائل ادباء عصرهِ التي سبق لنا ذكر بعضها في التراجم السابقة وقد اطرأها الخوري نيقولاوس الصائغ في بعض كتاباتهِ التي وجَّهها اليهِ سنة ١٧١٠ وطُبعت في آخر ديوانهِ (٢٨٧ــ٣٠٠) ويدعوهُ هناك « بتاج الادباء الراغبين وسراج النجباء الطالبين الشماس مكرديج الكسيح جواباً لكتابٍ ارسلهُ اليهِ » ويعظّم في رسالتهِ فضل الكسيح ويشيد بسعة علومهِ وآدابهِ فيمدحهُ نثراً وشعراً مديحاً بليغاً ويعزّيهِ بوفاة اخيهِ يوسف ويحضُّهُ على الصبر في اوجاعهِ ويذكّرهُ بفضائل والدهِ التي ورثها ليتشبه بها في حياتهِ . وهي رسالة بديعة تبلغ ٢٠ صفحة

ولمكرديج الكسيح شعر روى هو منهُ شيئاً في كتابهِ ريحانة الارواح فمن ذلك قولهُ يتشوَّق الى السماء (من الطويل):

أَثِيرَ ٱلسَّمَاءِ هَلْ إليكَ طريقَةٌ أصيرُ بها مع غايتي ومُنائي
اليك مُنائي ظَلَّ قلبي مُشَوَّقاً ولكن خطائي في قُيود خطائي

وقال في ما يُصيب النفس من تقلّبات الدهر (من الطويل):

قد كانتِ النفسُ كالفِرْدَوْسِ مُزْهِرَةً واليوم بومٌ وحوشُ الجنِّ تأويها
تَبًّا لطبعٍ غدا كالشَّوك مَنْبَتُهُ ان مالتِ النفسُ يوماً ظَلَّ ينكيها

وقال يصف شدائد الحياة (من الطويل):

لقد خُضْتُ دون الحقِّ كلَّ بَلِيَّةٍ يهيمُ بها قَلْبُ الزمان على مثلي
وذقتُ مِرار الدهر والموت دونهُ ودُسْتُ شَواظ العَدْل يَفترُّ عن شغل
وهِمْتُ بدين الله والهولُ ضمنهُ وفيهِ أرى الاهوال تَعْنو الى قَتْلي

وقال ايضاً يصف بلاياهُ (من الطويل):

سقيمٌ سقاهُ الدهرُ كلَّ بليَّةٍ فأضحى عديماً في مثالٍ مُنَفَّسِ
سطيحٌ على الغبراء تحت قبابهم محيطٌ بأفلاك العلي تَفرُّسي

ولهُ ايضاً في منفعةِ التجارب (من الطويل):

لا تَخْشَ من رَيْبِ الزمانِ فانهُ دليلُ انتخاب بل تهلَّلْ اذا نَزَلْ
وقبلكَ ابراهيمُ فَرَّ ويوسفٌ ترامى بأمرٍ شاءهُ ساكنُ الأَزَلْ
وكم من كرامٍ قد أُهينوا وشُرِّدوا كبَيْتِ عَروضٍ قد تخبَّلَ وانْخَزَلْ(١

(١) اشارة الى ما يقع في شعر بعض الكتبة من الجوازات غير المألوفة كالخبل والانخزال

وقد قال في اختيار الاصدقاء (من الطويل):

تخيَّر صديقاً مثل ما وافقهُ الذي يقولُ إنهُ العرش ضمنَ الشريعةِ
فرُبَّ حقيرِ الشأنِ يُنجي وشاهدي عُوَيْدٌ (١ حماناً من جحيمٍ تلظَّتِ

فهذا بعض ما بقي من نظمهِ ولعلَّ عند أدباء الحلبيين ما هو اوسع من ذاك فروينا ما وقع منهُ تحت يدنا

١٨ الشماس عبدالله زاخر

لم يشتهر عبدالله زاخر بنظم الشعر وانَّما كان احد أدباء الشهباء الذين ساعدوا بنفوذهم وقلمهم على النهضة الجديدة التي نشأت بين نصارى حلب لتعزيز اللغة العربية واعلاء منارها

﴿ نبذة من اخباره ﴾ افادنا عبدالله زاخر في مفكرة مخطوطة عن اصله واخباره (٢ نقتطف منها ما يلي: هو عبدالله بن زخريَّا بن موسى وقد لُقِّب بالزاخر اشارةً الى اسم ابيهِ وتنويهاً بوفرة تآليفهِ. وهو ابن عمّ الخوري نقولا بن نعمة ابن موسى. قُتل جدُّهما في حلب باسر واليها لوشاية وشي بهِ اعداؤهُ اليهِ فانتقل ولداهُ زخريَّا ونعمة الى حماة لانذعين باقاربهما وهناك وُلد لهما نقولا بن نعمة وعبدالله بن زخريَّا او زاخر. كان مولد عبدالله سنة ١٦٨٠ فنشأ في حماة ثم عاد بهِ والدهُ الى حلب في اوائل القرن الثامن عشر فدخل مدارسها وبرع في دروسهِ ثمَّ تخرَّج على الشيخ سليمان النحوي من ادباء الاسلام مع غيرهِ من النصارى كجبرئيل فرحات وابن عمهِ نقولا وعبدالله قرألي وغيرهم

وكان اهل عبدالله من الروم الارثذكس وانَّما تقرَّبوا الى الكثلكة بما جرى

---

١) ويريد بالعُوَيْد عود الصليب الذي بهِ حصل الخلاص للعالم من نير ابليس

٢) راجع مجلَّة اصداء الشرق (Echos d'Orient) ١١ [١٩٠٨]: ٧١ و٢١٨ و٢٧١

وقتئذٍ من الحركة الدينيَّة في حلب بهمَّة المرسلين . وتفرَّغ عبدالله لدرس التعاليم الدينيَّة واجتمع ببعض المرسلين الذين وطَّدوهُ في الايمان الكاثوليكي وقد اشتغل معهم في حلب اولًا ثمَّ في لبنان لاسيما الاب بطرس فروماج اليسوعي الذي كان يعرض على عبدالله تآليفهُ فينقَّحها . الى ان وقع بينهما نفور بسبب الراهبات الحلبيَّات الباسيليَّات اللواتي اتَّخذنَ اليسوعيين اولًا كمرشدين وتبعنَ قانون القديس فرنسيس دي سال مع غيرهنَّ من المترهبات ثمَّ فُصلنَ عنهنَّ بأمر الكرسي الرسولي ليحافظنَ على طقسهنَّ وكان عبدالله زاخر اكبر الساعين بذلك . وقد قضى السنين الاخيرة من حياتهِ في دير مار يوحنَّا الصابغ في الشوير زاهدًا بالدنيا وهناك أدار مطبعتهُ الشهيرة فنشر فيها بالطبع المتقن عدَّة تآليف سردناها سابقاً مع تاريخ تلك المطبعة (المشرق ٣[١٩٠٠]: ٣٥٩ــ٣٦٢) الى ان توفَّاهُ الله في ١٠ آب من السنة ١٧٤٨

﴿ آدابهُ وتآليفهُ ﴾ قد عدَّدنا في كتابنا المخطوطات العربيَّة لكتبة النصرانيَّة (ص١٠٨ــ١٠٩) تآليف الشمَّاس عبدالله زاخر ومعظمها كتب لاهوتيَّة جدليَّة أثبت فيها حقائق الدين الكاثوليكي وردَّ على من نكرها او ناصبها من ارمن ويعاقبة ونساطرة وبروتستان ولاسيما من روم ارثوذكس فتتبَّع اضاليلهم وفنَّدها تفنيدًا قاطعاً ينبئ بمعارفهِ الواسعة للاسفار المقدَّسة ولاعمال الآباء وتاريخ الكنيسة . وهي تنيف على عشرة تآليف ضخمة . ولهُ ما خلا ذلك تفسير الاياغوجي لاثير الدين الابهري فدعاهُ شرح الاصول الابهريَّة وقد عُني ايضاً بتعريبات او تصحيحات شتى لكتب روحيَّة

﴿ شعرهُ ونثرهُ ﴾ يُنعت عبدالله زاخر بالشاعر في بعض التقاريظ التي قيلت في وصفهِ على انَّنا لم نقف لهُ الَّا على ابيات نظمها جواباً على ما كتبهُ اليهِ الخوري نقولاوس ابن عمهِ وكان عبدالله بلمَّهُ مرضهُ فاهداهُ فنجان قهوة فشكرهُ الخوري بهذه الابيات وصحبها بهديَّة :

لقد عمَّت نوالك باختصاص ... عليلًا خصَّهُ الداء الاليمُ
فكان دواء دائيَ منك قهوى ... لها حُسْن بهِ يَشفى السقيمُ
فواصلُك الجزاء وليس فضلٌ ... لنا والفضلُ فضلكمُ العميمُ

واعتاني الهمّ الآن عنها لانّ الامرَ ما قال الحكيمُ
شرورٌ لا تدوم اجلْ خيرًا من الخير الذي هو لا يدومُ

فاجابهُ عبدالله زاخر بهذه الابيات (من الوافر):

لقد وافى عقيمَ الفكر نظمٌ بديعٌ دونهُ الدرُّ النظيمُ
واسبغتَ الجزاءَ وليس فعلٌ يحقُّ لهُ جزاؤكمُ العظيمُ
ولكنَّ الكريمَ بهِ طباعٌ سموُّ المجد والبذلُ الجسيمُ
فشكرًا عُدَّ ما اوهبتَ حبًّا وحمدًا كلّما هبَّ النسيمُ

اما نثرهُ فيمتاز بسلاستهِ وانسجامهِ وقوَّة برهانهِ . ولا تخلو مقدّمات كتبهِ من مسحة من البلاغة حلّاها بالسجع ومنها يُعرف اقتدارهُ على الانشاء البديع

١٩ نعمة بن توما الحلبيّ

هذا ايضاً احد نجوم تلك الثريا النصرانيَّة المنيرة التي سطعت ضياؤها في الشهباء في القرن الثامن عشر فاستوقفت نظر المتشرّفين لنورها

سبق حضرة المسيو جرجس منش فكتب فصلًا ممتعاً في المشرق (٥[١٩٠٢]: ٣٩٦ــ٤٠٥) روى فيهِ اخبار نعمة الله بن توما الحلبي نقتبس منهُ المعلومات الآتية:

اصلهُ ومنشأهُ هو نعمة بن الخوري توما الحلبي . وُلد في الشهباء في اواخر القرن السابع عشر وهو من طائفة الروم الملكيين وكان ابوهُ الخوري توما احد كهنتهم يُعرف بفضله وتقواه . والمرجّح انهُ عدل مع اهل بيتهِ الى الدين الكاثوليكي في ايّام البطريرك اثناسيوس دبّاس . وقد حصل وقتئذٍ ارتداد كثيرين من الروم الى الكثلكة

فترعرع الفتى نعمة ومال الى درس العلوم برغبة واتقنها تحت مراقبة معلمين وطنيين ثم احكم فنون العربية من فصاحة وبيان وبديع وشعر على الشيخ سليمان النحوي فبرع في الكتابة

﴿ سياحاته وتأهله ﴾ دخل نعمة في جهاد الحياة ولقي مع مواطنيه المرتدين الى الكثلكة عَنَتاً وشدائد زادته رسوخاً في ايمانه . وتعاطى اولاً اعمال التجارة وخرج الى انحاء الاناضول فلم يحمد اخلاق اهلها ومعاملاتهم ومما قالهُ يهجو مدينة طرقات (من السريع):

وبلدةٍ ما شامَها ناظرٌ مع اهلها الّا وعنها نَفَرْ
كأنّما الاسطبلُ تكوينُها واهلُها فيهِ جلوفُ البَقَرْ

ثم ساح مرّةً أخرى الى اصقاع الشام واجتاز بيروت ووصف احوالها وزار قنصلها الفرنساوي وهو يومئذٍ الشيخ نوفل الخازن الذائع الشهرة فتحفّى بهِ وبالغ في اكرامهِ كما يلوح من رسالتين وجّههما نعمة اليهِ شاكراً لهُ جميلهُ . وفي هذه السياحة قصد زيارة بلدة صيدنايا ليكرم في ديرها صورة العذراء العجائبيّة وقد نظم في مديحها شعراً لطيفاً من ذلك قولهُ (من الرمل) :

أنِخ حصنَ البكر وادخل ضارعاً باتضاع يرفع المتّضعا
لُذ بها تحظى بنصرٍ عاجلٍ فاز مَرْ لِحماها أسرعا
كم نجاها عائمٌ في اثمهِ واتاها قاصداً مستشفعا
فتزكّى من ذنوبٍ جمّةٍ بانسحاقٍ لبُّهُ قد صُدعا
فاليكِ يا ملاذَ الخلق قد جئتُ ارجو العفو منك طمعا
فلكمْ مثلي اثيمٌ قد حظي منكِ بالغفران لمّا ضرعا

وكنّا وقفنا سابقاً على رحلة احد الحلبيين من الشهباء الى القطر المصري (المشرق

٥[١٩٠٢]: ١٠٣٠) وكانت غفلًا من اسم كاتبها فظنّنا انها لنعمة بن توما ثمّ تحقّقنا بعد ذلك انها لمواطنهِ ابرهيم الحكيم فنشرناها باسمهِ (المشرق ١٠[٧ ١٩]: ٥٥٩ الخ)

ثم رجع نعمة الى وطنهِ حلب وتأهل فيها ورزقهُ الله ولدين جبرائيل وتوما لولا انّ المنيّة اختزمت ابنهُ جبرائيل في ريعان شبابهِ فبكاهُ ونظم فيهِ المراثي اللطيفة كقولهِ (من مجزوء الرمل) :

يا لهمي حانَ حَيْني حينما الصبرُ فُقِدْ
يا لهمي ضاق ذَرْعي وخلا مني الجَلَدْ
يا لهمي ضاع رُشدي واذّكاري قد خمَدْ
غاب جبرئيلُ عني يا لِكَرْبي وشَرَدْ
آهِ كم اوسَعَني النا سُ عليهِ من حَسَدْ
كم وكم من قائل ذا م الشبلُ من ذاك الأسدْ
يا لهمي هل يُرَجّى منهُ عودٌ او يُرَدّ
انّ هذا لمحالٌ لا يرجّيهِ احدْ
ليس لي ألاك يا مَن عندهُ حلُّ العُقَدْ

وزاد اللهُ بابتعاد ابنهِ توما عنهُ مهاجرًا الى القطر المصري سنة ١٧٥٥ فقال ابوه (من الطويل) :

ولمّا قضى التوديعُ فينا قضاءهُ وزفّت مطايا البين رَكْبَ الترحُّلِ
فقلتُ لأصحابي والدمع قد جرى «قفوا نبكِ من ذكرى حبيب ومنزل»

وأصيب نعمة بشدائد وضنك العيش حتى اضطرّ ان يبيع اعزّ ما كان لديهِ اعني كتبهُ التي عدّد نوادرها في قصيدةٍ تجدها في المشرق (٥[١٩٠٢]: ٤٠٠) ولم تُعرف سنة وفاة المترجم والمظنون انهُ توفي نحو السنة ١٧٧٠

﴿ آدابُهُ ﴾ ان الشهرة التي حازها نعمة بن توما بالكتابة والانشاء البليغ الفتت اليهِ نظر البطريرك اثناسيوس دبّاس المقيم في حلب فاستدعاهُ ليكون كاتب اسرارهِ ومنشئ رسائلهِ . فتولّى ذلك المنصب في عهدهِ ثمّ في عهد خلفهِ البطريرك مكسيموس حكيم وانشأ باسمهما عدّة رسائل ومناشير ومذكرات ووثائق وصكوك توجّهت الى رومية الى الاحبار الرومانيين والمجمع المقدّس والى السفراء الفرنسويين في الاستانة والى غيرهم وقد اجاد وافاد بجمعها في مجلّد خاصّ وسمهُ بمجالة الطريق لمن رضي بتقليد التلفيق» منهُ نسخة واسعة وصفها جناب الاديب حبيب افندي الزيّات وحصل عليها المنسيور جرجس منش (المشرق ٥[١٩٠٢]: ٤٠٠ــ٤٠٠) وفي مكتبتنا الشرقيّة منهُ نسخة مختصرة في ١٤٢ صفحة . هي كتاريخ الكثلكة في حلب في القرن الثامن عشر وما نال المرتدّين الى الدين الكاثوليكي من الاضطهادات من قبل سلفسترس القبرسي وذويهِ . باشر نعمة بجمع هذا الكتاب النفيس في السنة ١٧٥٩ وتتبّع تدوين كتاباتهِ الى السنة ١٧٦٧

﴿ شعرهُ ﴾ لنعمة بن توما ديوان شعر واسع لدينا منهُ نسخة تستغرق ١١٧ صفحة لهُ فيهِ بين قصائد ومقطّعات ما يبلغ مائتي منظومة في كل ابواب الشعر من مديح رجال عظام كأحبار كنيستهِ وارباب الدولة والسادة المسلمين والاصدقاء ومن مراثٍ وتهانٍ وهجو الى غير ذلك من الاغراض . وبينها قسمٌ كبير في المعاني الروحيّة كمديح السيد المسيح والعذراء مريم ووصف الاعياد السنويّة والزهديّات وهي احسن دليل على ما طُبع عليهِ من رُوح التقى والرسوخ في الدين الكاثوليكي وسنقتطف منهُ شيئاً في عدد قادم ان شاء الله (لهُ بقيّة)

جولة في كسروان

لحضرة القس أنطونيوس شلي اللبناني

وصف مخطوطات مكتبة عشقوت (تابع)

ومما اطّلعنا عليه في مكتبة عشقوت:

٢٥ «كتاب الاعادة والنجاة بايضاح في غاية التوفيق من تهم وثاب جوان